

دراسات تحليلية :

## ذو النون المصري

للأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

بين ضفاف النيل ورمال الصحراء في بلدة أخميم بمديرية جرجا من أعمال صعيد مصر ، ولد أبو الفيض توبان بن إبراهيم ذو النون المصري سنة ١٨٠٠ بمدة الهجرة ، وكان أبوه نوبياً جياً به من بلاد النوبة رقيقاً ثم اعتق . ونشأ ذو النون تهب عليه نسائم النيل الرطبة ، وتلفح وجهه رياح الصحراء الجافة ، كلاهما تحمل أسراراً غامضة وتوحى بمظلمة الكون وخالقه ، وبين قوم محدودى المعارف ضيق أفق التفكير ، قضى أيام صباه .

فلما شب عن الطوق رائست مداركه ، ضاقت نفسه الكبيرة بهذا الجو الخائق المحدود ، فلم يجد سوى الخرائب المصرية يطوف بينها من بلدة إلى أخرى يدرس رموزها ويحاول حلها والوصول إلى أسرارها — وقد كان هذا الطواف المحدود طاملاً من عوامل حبه التثقل بين بلدان العالم الإسلامى سميماً وراء بحثه عن الحقيقة ودراسته الصوفية — ولما لم يجد بين هذه الخرائب ما يشقى قليل نفسه ، راح ينشد الهداية في جوانب الصحراء الواسعة عتله يصل إلى طلبته من المعرفة والعلم . وفيما هو في حيرته ، سمع بسمدون الصوفي المصري ، فذهب إليه وسمع منه فسحره حديثه وأثرب قلبه محبته ؛ فلقد وجد بمدالئها والتعب بنية نفسه وأمله الفقود ، وتلذذ عليه ، ودرس الصوفية على يديه ، وسرعان ما أعجب الأستاذ بفصاحة تلميذه فقربه إليه وآثره بصحبته . وبجانب توفره على دراسة الصوفية كان يدرس الطب والكيمياء وعلوم السحر .

وذاث يوم عاد إلى أخميم فوصلها ليلاً وسمع دفوقاً تضرب وشاهد قوماً يلهون ، فسأل ما هذا ؟ فقيل له عرس . ثم سار قليلاً فسمع نواحا ورأى نسوة يتدين ، فسأل ما هذا ؟ فقيل له فلان مات . فقال : أعطى أولئك فاشكروا ، وابتلى هؤلاء فاسبروا . لله على ألا يبت بهذا البلد . وانطلق لا يلوى على شيء ، ترفه راييه ويخفضه واد ، هاتماً ينشد المعرفة ويبينى الوصول ،

حتى بلغ بيت الله الحرام وزار القبر الشريف ، ثم تابع سيره إلى دمشق وزار كثيراً من النساك القيمين في جنوب إنطاكية ، وسألهم وسمع منهم . قال « زرت في لبنان رجلاً نحيفاً ضميماً يصلى . فسلمت فرد السلام وما زال في ركوع وسجود حتى صلى العصر ، ثم جلس ولم يتكلم ، فطلبت منه أن يدهم لى فقال : آتسك الله بقربه . فطلبت منه المزيد ، فقال : من آتسه الله بقربه أعطاه أربما . عزاً من غير عشيرة ، وعلماً من غير طلب ، وغنى من غير مال ، وأنساً بغير جماعة . ثم شفق فلم يبق إلا بعد ثلاث وأنا منتظر ، فلما أفاق قال : انصرف عنى بسلام . فقلت أرسنى قال : أحيب مولاك ولا ترد بحبه بدلا . »

عاد إلى مصر وقد روى ظمأه ، وأخذت ينادى بتعاليمه بين قوم ران الجهل على قلوبهم وعميت بصائرهم فابقهون قولاً — وكان أول من تكلم عن علوم المنازلات ، فأنكر عليه أهل مصر هذا واتهموه بالزندقة والخروج عن الدين لأنه لم يكن لهم بهذا العلم عهد ، فقالوا أحدث علماً لم تتكلم فيه الصحابة (١) — فاضطهدوه وسعوا به إلى الخليفة المتوكل ، فبعث إلى عامله على مصر فأرسله إليه ، فألقى به في السجن . ولكن أصدقائه وتلاميذه طلبوا له العفو من الخليفة وما زالوا به حتى أخرجه من السجن ، وجمع العلماء ليناظروه . وتحدث أبو الفيض وتحدث العلماء فما زال كلامه يملو وكلامهم يهبط حتى صمتوا جميعاً وتحدث وحده . ثم وعظ الخليفة ، فبكى بكاء مراراً وندم على سجنه وقال : إذا كان هذا زنديقاً فما فى الأرض مسلم . وردة مكرماً . فتدوى اسمه فى الآفاق وأقبل عليه الناس من كل صوب وحذب يلتصمون العلم عنده ويطلبون الرشاد على يديه .

\*\*\*

وكان يعلم تلاميذه التوبة ويلقنهم كبح جماح النفس والاقلاع عن النواية . وقد كان يفرق بين توبة الإنابة التى ترجع إلى خشية العقاب والخوف منه ، وبين توبة الاستحياء التى تستند إلى الاستحياء من رحمة الله سبحانه وتعالى . وكان يقول التوبة ثلاث : « توبة الموم وهى التوبة عن الماصى ، وتوبة الخواص وهى التوبة عن الإهمال ، وتوبة المعرفة وهى التوبة التى تعنى الإعراض

(١) حسن المحاضرة للسيوطى ١٢

ولا يمتد باطناً من العلم ما ينقض عليه ظاهراً من الحلم ولا يحمله  
كثرة نمر الله تعالى عليه ، وكرامته على هتك أسرار محارم  
الله تعالى .

والمعرفة تقود إلى الخيرة ، ولكنها خيرة على نوعين : خيرة  
العامة وتؤدي بأصحابها إلى الزندقة والضلال ، وخيرة الخاصة وهي  
تتسبب عن الاكتشاف ، فهي الخيرة التي تدوم وتبقى . وفي ذلك  
يقول « التفكير في ذات الله تعالى جهل ، والإشارة إليه شرك ،  
وحقيقة المعرفة خيرة » .

وكأن المعرفة تؤدي إلى الخيرة فهي كذلك سبيل الانحدار  
بالذات العلية ، وفي ذلك قال : « إن لله عبادة نصيبوا أشجار الخطايا  
نصب أعينهم وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندماً وحزننا فجنوا من غير  
جنون ، وتبلدوا من غير عي ولا بكيم ، وإنهم لهم البلاء الفصحاء  
الساوقون بالله وبرسوله ، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على  
طول البلاء ، ثم تولت قلوبهم في المكوث ، وجالت فكرهم بين  
مرايا حجب الجبروت واستظلوا تحت رواق الندم وقرأوا صحيفة  
الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلام  
الورع فاستمذبوا سمرارة الترك للدنيا ، واستلانوا خشونة المضجع  
حتى ظفروا بحب النجاة وعروة السلامة ، وسرحت أرواحهم  
في العلى حتى أماخوا في رياض النعيم وغاصوا في بحر الحياة وردموا  
خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بغناه العلم واستقوا  
من غدير الحكمة ، وركبوا في سفينة العطفية وأقلعوا بريح النجاة  
في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعهد المنة  
والكرامة »

وتحدث ذو النون عن أسفاره التي كان فيها ينشد سبل  
الخلاص من شوائب الحياة وأكدارها قال : « لقد حصلت في  
أول أسفاري علماً برضى الخاصة والعامة ، وحصلت في ثانيها علماً  
برضى الخاصة دون العامة ، وفي ثالث أسفاري حصلت من العلم  
ما لم ترض به لا الخاصة ولا العامة ، فندوت شريداً طريداً . لقد  
حصلت من العلم في المرة الأولى التوبة وهي مقبولة لدى الخاصة  
والعامة على حد سواء وفي المرة الثانية وصلت إلى التوكل على الله  
ومعاملته ومحبته وهي شئون تتقبلها الخاصة ولا تتفهمها العامة ،  
وفي المرة الثالثة وصلت إلى الحقيقة التي تسمو على السلم والمقل

من كل شيء سوى الله » .

ومن تعاليمه عن الروح أن النفس هي العقبة الكأداء في  
سبيل السكال الروحي لأنها خاضعة لرغبات النفع الذاتي ، ولذلك  
وجب على المتطلع إلى الله أن يحارب نزواتها ويتغلب عليها . ولما  
سئل عن الحجب الموجودة بين الله والروح هو أعظمها أترأ في  
إخفاء رؤية الحقيقة قال : « أخفي الحجاب وأشدته رؤية النفس  
وتدبيرها »

ويقول إنه يمكن عن طريق كبح جماح النفس تخليص  
الروح من العقبات النفسية وإعادتها إلى أصلها الأول من الطهارة  
والنقاوة فتمود إلى اتصالها بالله .

فالعودة إلى الله لا بد من تطهير النفس من الشرور وكبح  
جواحه عن الرغبات ومن أية صلة أخرى غير الصلة بالذات العلية  
ومن تعاليمه في ذلك : « لا تصحب مع الله إلا بالواقعة ولا مع  
الخلق إلا بالمناجحة ، ولا مع النفس إلا بالمخالفة ، ولا مع الشيطان  
إلا بالعداوة » .

وذو النفس ضروري للروح التي تأمل في أنس الله والترب  
منه ، فكلما ازداد المارق في إذلال نفسه وإخضاعها ازداد قربا  
من الله ، فيقول « وما أعز الله عبداً بمز ، أعزله من أن يذله  
على ذل نفسه » لأن المرید عندما يبصر القوة السماوية وتملكه  
عظمة خالق السموات والأرض يدرك كم هو ضئيل بالنسبة لهذه  
القوى فيمتلئ تواضعاً . وفي ذلك يقول ذو النون « من أراد  
التواضع فليوجه نفسه إلى عظمة الله تعالى فإنها تذوب وتصفو .  
ومن نظر إلى سلطان الله ذهب سلطان نفسه ، لأن النفوس كلها  
فقيرة عند هيئته وجبروته » .

\*\*\*

وكانت المعرفة أهم الموضوعات من تعاليمه ، فهو أول  
الصوفيين الذين تعرضوا للكلام عنها . ومن تعاليمه في المعرفة أن  
المعرفة بالله ثلاث ، أولاها معرفة التوحيد التي هي ملك المؤمنين  
جميعاً . وثانيها معرفة الحجية والبيان وهذه هي معرفة الفلاسفة  
وعلماء الدين . وثالثها معرفة صفات الله وهي معرفة أولياء الله  
الذين يتأملون الله بقلوبهم فيكشف لهم عما لا يكشفه للآخرين  
فيقول : « علامة المارق ثلاث : لا يطن نور معرفته نور ورعه